

الباب الثالث

ترجمة ابن عربي وابن عجيبة ومفهوم الذكر والتفكير

أ. ترجمة ابن عربي

١. اسمه ومولده وتاريخه ووفاته

هو الشيخ الأكبر ذو المحاسن التي تبهر: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الحاتمي من ولد عبد الله بن حاتم أخي عدي بن حاتم، يكنى أبا بكر، ويلقب بمحيي الدين، ويعرف بالحاتمي وبابن عربي بدون ألف ولام حسبما اصطلح عليه أهل المشرق فرقاً بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي صاحب أحكام القرآن. وكان بالمغرب يُعرف بابن العربي بالألف واللام كما كان يُعرف أيضاً في الأندلس بابن سراقه.^١ وكان ابن عربي من أكبر علماء الطريق جمع بين سائر العلوم الكسبية وما قر له من العلوم الوهية، ومنزلته شهيرة، وكان غلب عليه التوحيد علماً وخلقاً وحالاً، لا يكثر بالوجود مقبلاً كان أو معرضاً، وله علماء أتباع أرباب مواجيد وتصانيف،^٢ وإن ابن عربي كان ظاهري المذهب في العبادات، باطني النظر في الإعتقادات، خاض بحار تلك العبارات، وتحقق تلك الإشارات، وتصانيفه تشهد له عند أولي البصر بالتقدم والإقدام ومواقف النهايات في منازل الأقدام، ولهذا ما ارتبت في أمره والله تعالى أعلم بصره.^٣

^١ ابن عربي، الفتوحات المكية، المجلد الثامن، (بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٧)، ٤٨٢.

^٢ ابن عربي، الفتوحات المكية، المجلد الثامن، ٤٨٦.

^٣ ابن عربي، الفتوحات المكية، المجلد الثامن، ٤٨٣.

ولد يوم الإثنين أو ليلته سابع عشر رمضان سنة ٥٦٠ هـ (ستين وخمسمائة من الهجرة) في مرسية (بضم الميم وسكون الراء وكسر السين المهملتين ثم مثناة تحتية وفي آخرها هاء) وهي مدينة محدثة إسلامية بنيت في أيام الأمويين الأندلسيين وهي في شرق الأندلس تشبه إشبيلية في غربه بكثرة المنازه والبساتين. ثم انتقل إلى إشبيلية سنة ٥٦٨ هـ (ثمانى وستين وخمسمائة)، وهي من قواعد الأندلس ولها خمسة عشر بابا وهي من غرب الأندلس وجنوبه وبينها وبين قرطبة أربعة أيام، وهي مدينة أولية، ومعنى اسمها المدينة المنبسطة، وبقي بها نحواً من ثلاثين عاماً، تلقى فيها العلم على كثير من الشيوخ حتى ظهر نجمه وعلا ذكره، وفي سنة ٥٩٨ هـ (ثمان وتسعين وخمسمائة) نرح إلى المشرق وطوّف في كثير من البلاد، فدخل الشام ومصر والموصل وآسيا الصغرى ومكة وأخيراً ألقى عصاه واستقر به النوى في دمشق، وتوفي رضي الله عنه بها ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر في سنة ٦٣٨ هـ (ثمان وثلاثين وستمائة) ودُفِنَ بسفح قاسيون بمنطقة تدعى الصالحية فرحمه الله رحمة واسعة.^٤

كان ابن عربي شيخ المتصوفة في وقته، وكان له أتباع ومريدون، يعجبون به إلى حد كبير، حتى لقبوه فيما بينهم بالشيخ الأكبر والعارف بالله. كما كان له أعداء ينقمون عليه، ويرمونهم بالكفر والزندقة، وذلك لما كان يدين به من القول بوحدة الوجود، ولما كان يصدر عنه من المقالات الموهمة، التي تحمل في ظاهرها كل معانى الكفر والزندقة، فمن المعجبين بابن عربي: قاضى القضاة مجد الدين

^٤ ابن عربي، الفتوحات المكية، المجلد الثامن، ٤٨٢. وانظر أيضا محمد حسين الذهبي، التفسير

والمفسرون، المجلد الثاني، ١٣١-١٣٢.

محمد بن يعقوب الشيرازى الفيروزآبادى صاحب القاموس، وقد كتب كتاباً يدافع فيه عنه، رداً على رضى الدين به الخياط الذى كتب عن عقيدة ابن عربى ورماه بالكفر. وكمال الدين الزملكاني من أكابر مشايخ الشام والشيخ صلاح الدين الصفدى والحافظ السيوطى الذى ألف فى الدفاع عنه كتاباً سماه "تنبيه الغيبى على تنزيه ابن عربى" وسراج الدين البلقينى وتقى الدين بن السبكي وغيرهم. ومن الناقمين عليه: ابن الخياط السابق ذكره، والحافظ الذهبى، وابن تيمية عدو الصوفية على الإطلاق، ولقد بلغ من عداوة بعض الناس لابن عربى أنهم حاولوا اغتياله بمصر ولكن الله سلّمه وأنجاه.^٥

٢. شيوخه

وشيوخ ابن عربى كثير منها:

(١) أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي

(٢) أبو بكر بن خلف الإشبيلي

(٣) أبو القاسم الشراط القرطبي

(٤) أبو القاسم الخزستاني

(٥) أبو طاهر السلفي

(٦) أبو بكر محمد ابن أبي جمرة

(٧) أبو الحسن بن أبي نصر

(٨) ابن زرقون

^٥ محمد حسين الذهبى، المجلد الثانى، التفسير والمفسرون، ١٣٢.

- (٩) ابن عساكر
 (١٠) الحافظ ابن الجند
 (١١) أبو الوليد الحضرمي
 (١٢) أبو محمد بن عبد الله
 (١٣) أبو محمد عبد المنعم بن محمد الخزرجي
 (١٤) أبو جعفر بن مصلى
 (١٥) أبو الفرج بن الجوزي.^٦

٣. تأليفه

وتأليف ابن عربي كثير منها:

- (١) الفتوحات المكية
 (٢) الفصوص
 (٣) الجمع والتفصيل في حقائق التنزيل
 (٤) الجذوة المقتسبة والخطرة المختلصة
 (٥) كتاب كشف المعنى في تفسير الأسماء الحسنی
 (٦) كتاب المعارف الإلهية
 (٧) كتاب الاسرى إلى المقام الأسرى

^٦ ابن عربي، الفتوحات المكية، المجلد الثامن، ٤٨٢-٤٨٣.

٨) كتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم

٩) كتاب عنقاء مغرب في صفة ختم الأولياء وشمس المغرب

١٠) الرسالة الملقبة بمشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية.^٧

٤. مذهبه في وحدة الوجود

أما مذهبه في وحدة الوجود فهو: أنه يرى أن الوجود حقيقة واحدة. ويعد التعدد والكثرة أمراً قضت به الحواس الظاهرة "وقد أداه قوله بوحدة الوجود إلى قوله بوحدة الأديان، لا فرق بين سماويها وغير سماويها، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلى في صورهم، وصور جميع المعبودات، والغاية الحقيقية من عبادة العبد لربه: هو التحقق من وحدته الذاتية معه. وإنما الباطل من العبادة: أن يُقصر العبد ربه على مجلى واحد دون غيره، ويسميه إلهاً".

"وبالجملة، فمنزلة ابن عربي العلمية كبيرة، ولا أدل على ذلك من مؤلفاته الكثيرة التي تدل على سعة باعه، وتبحره في العلوم الظاهرة والباطنة، وقد بلغ ما بقى منها إلى اليوم مائة وخمسون كتاباً، ويظهر أن هذا العدد ليس إلا نصف ما ألفه ابن عربي في الواقع". وأهم هذه المؤلفات "الفتوحات المكية" الذي ذاع صيته. وكلف به كثير من الرجال، ثم "فصوص الحكم"، وله ديوان في الأشعار الصوفية، وكتاب "الأخلاق"، وكتاب "مجموع الرسائل الإلهية"، وغير ذلك من مؤلفاته الكثيرة.

غير أن هذه المؤلفات يوجد في تضاعيفها كثير من الكلمات المشكلة، التي سببت خوص الناس في عقيدته، ورميهم إياه بالكفر والزندقة، ولكن أتباعه ومريديه ومن أعجب به من العلماء لم

^٧ ابن عربي، الفتوحات المكية، المجلد الثامن، ٤٨٣.

يأخذوا هذه الألفاظ على ظواهرها بل قالوا: إن ما أوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد، وإنما المراد أمور اصطلاح عليها متأخروا أهل الطريق غيرة عليها. حتى لا يدعيها الكذابون. وقد قال السيوطي في كتابه "تنبيه الغبي على تنزيه ابن عربي": "والقول الفصل في ابن عربي: اعتقاد ولايته، وتحريم النظر في كتبه، فقد نُقِلَ عنه هو أنه قال: نحن قوم يحرم النظر في كتبنا. قال السيوطي: وذلك لأن الصوفية تواضعوا على ألفاظ اصطلاحوا عليها. وأرادوا بها معاني غير المعاني المتعارفة، فَمَن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر. نص على ذلك الغزالي في بعض كتبه وقال: إنه شبيه بالمتشابه من القرآن والسُّنَّة، مَن حمّله على ظاهره كفر".^٨

ومما استدلوا به على أن ابن عربي لا يريد الظاهر الموهوم من كلامه: ما يروونه عنه من أنه أنشد بعض إخوانه هذا البيت وهو من نظمه:

يا من يراني ولا أراه . . . كم ذا أراه ولا يراني

فاعترض عليه السامع وقال: كيف تقول إنه لا يراك، وأنت تعلم أنه يراك؟ فقال مرتجلاً:

يامن يراني مجرمًا . . . ولا أراه آخذًا

كم ذا أراه منعماً . . . ولا يراني لا تذاً

قالوا: فهذا يدل على أن كلام الشيخ لا يُراد به ظاهره، وإنما له محامل تليق به.

ومن العلماء مَن يُنَزِّه ابن عربي عن هذه العبارات الموهمة ويقول: إن ما جاء من ذلك فهو مدسوس عليه، ويروون في ذلك أن الشعراني الذي اختصر الفتوحات قال: "وقد توقفتُ حال الاختصار

^٨ محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، المجلد الثاني، ١٣٣.

في مواضع كثيرة منه، لم يظهر لى موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة. فحذفتها من هذا المختصر. وربما سهوت فتبعت ما فى الكتاب، كما وقع للبيضاوى مع الزمخشري، ثم لم أزل كذلك أظن أن المواضع التى حُذفت ثابتة عن الشيخ محيى الدين، حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين السيد محمد بن السيد أبى الطيب المدنى المتوفى سنة ٩٥٥ هـ (خمسة وخمسون وتسعمائة من الهجرة) ، فذاكرته فى ذلك، فأخرج إليّ نسخة من الفتوحات التى قابلها على النسخة التى عليها خط للشيخ محيى الدين نفسه بقونية، فلم أر فيها شيئاً مما توقفت فيه وحذفته، فعلمت أن النسخ التى فى مصر الآن كلها كتبت من النسخة التى دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة، كما وقع له ذلك فى كتاب الفصوص وغيره".

ومهما يكن من شىء، فابن عربى مُعقّد فى أفكاره، موهم فى ألفاظه وتعايره، مشكل فى أكثر ما يقول. ومع كل هذا فلا أتهمه فى عقيدته، لجهلى باصطلاحات القوم ورموزهم. وكلمه الإنصاف فيه كما أعتقد - قول الحافظ الذهبى عنه: "وله توسع فى الكلام، وذكاء، وقوة خاطر، وحافظة وتدقيق فى التصوف، وتأليفه جمّة فى العرفان، ولولا شطحه فى الكلام لم يكن به بأس"^٩.

ب. ترجمة ابن عجيبة

١. اسمه ومولده وتاريخه ووفاته

هو الإمام العلامة المفسر أحمد بن محمد بن المهدي بن الحسين بن محمد المعروف بابن عجيبة، والمكنى بأبى عباس، الحسنى نسباً، التطوانى داراً، الفاسى تعليماً، المالكي مذهباً، الشاذلى

^٩ محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، المجلد الثانى، ١٣٤.

طريقة، أعجوبة زمانه، وعديم النظر في أمثاله، مؤلف التأليف العديدة، ومفيد العلوم المفيدة. العالم العلامة، والصوفي الفهامة، والعارف المحقق، الشيخ الكامل الجليل، الشريف البركة، الشريف الحسين، قطب دائرة الولاية الكبرى، ومنبع أسرار أهل الحقيقة، شيخ الطريقتين، وعمدة الفريقين، ولي الله الأكبر، وغوثه الأشهر، سيدنا ومولانا أحمد بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي.

ولد الإمام ابن عجيبة في قرية أعجيبش، من قبيلة أنجرة، التي تسكن الجبال المحيطة بمدينة تطوان، الواقعة في أقصى شمال المغرب، على مسافة عشرة كيلومترات، من ساحل البحر الأبيض المتوسط. وكان مولده رحمه الله، حسبما أورد في فهرسته سنة ستين أو إحدى وستين ومائة وألف هجرية ولا خلاف بين المصادر الأخرى التي أوردت تاريخ ولادته، وإن كانت قد اقتصرت على ذكر إحدى السنتين. ويرجع عدم جزم شيخنا بإحدى السنتين إلى أن مولده لم يؤرخ بالسنين، بل أرخ بحادث حصار المستضيء بن إسماعيل لتطوان، وكان ذلك بين سنتي ستين وإحدى وستين. ثم توفي قدس الله سره في منتصف القرن الثالث عشر، ومقامه بالمغرب مشهور يتوسل به إلى الله في قضاء الحاجات ودفع الكربات.^{١٠}

ولد الشيخ من والدين صالحين، كلاهما من آل بيت النبوة، يرجع نسبهما إلى الإمام الحسن بن علي رضي الله عنه والسيدة فاطمة رضي الله عنها بنت سيد الكونين، وصخرة العالمين، حبيب الرحمن،

^{١٠} ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المجلد الأول، (القاهرة: حسن عباس زكي، ١٩٩٩)،

١٩. وانظر أيضا ابن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ٧.

من قدمه فوق رؤوسنا شرف لنا، ومن إذا انتسب إليه أحد نسبا فاز بالمنى. والمستطلع لتاريخ آبائه يدرك صلاحهم وتقواهم، ومدى ما كانوا عليه من خشية لله وشرف هاشمى. فجد جده عبد الله بن عجيبة ولى مشهور، وقبره مزار بقبيلة أنجرة، كما أن جد والده الحسين الحجوجى صاحب كرامات عديدة ومآثر حميدة، أما جده المهدي، فكان كما يقول شيخنا: رجلا صالحا صموتا خلويا أي يحب الخلوة مغفلا عن أمور الدنيا، ولا نجده إلا وحده، تاليا، أو مصليا، أو مشتغلا بما يعنيه وأبوه محمد بن المهدي كان رجلا صالحا، لا يجلس فى الغالب إلا وحده، فقيرا من الدنيا، بيت يقرأ القرآن، توفى رحمه الله سنة ١١٩٦ هـ.

نشأ الشيخ ابن عجيبة فى بيت صلاح وتقوى، وأقبل على حفظ القرآن وهو فى سن مبكرة، وقد تميز الشيخ بالقدرة على التركيز العلمي، وتوقد القريحة، ورحل إلى مدينة القصر الكبير، وأقام فيها نحو من عامين، اجتهد خلالهما فى تحصيل العلم، حتى قال عن نفسه: أهملت نفسى، ونسيت أمرها، وكنت أقرأ سبعة مجالس، بين الليل والنهار.^{١١}

ولم يقنع الطالب بما حصل فى مدينة القصر الكبير، بل زاده شغفا فى القدوم إلى تطوان، وهى موثلا للعلم والحكمة، ومهبط كثير من العلماء، فقدمها ابن عجيبة وهو ابن العشرين، وأقام فيها وأقبل على تحصيل العلم فى شتى الأبواب بكل جد، وتنوعت مجالسه بين أئمة الفقه والتفسير والحديث واللغة والنحو والصرف والمنطق أقبل على هؤلاء وهؤلاء، يستمع منهم ويقرأ عليهم ويأخذ عنهم وأقبلوا عليه يعطونه كل ما عندهم لما وجدوا فيه من حسن الإعداد والاستعداد فواصل الليل بالنهار.

^{١١} ابن عجيبة، البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد، المجلد الأول، ٢٠.

وسرعان ما ظهرت ثمار هذا الجهد والاجتهاد، فلم يبلغ شيخنا تسعا وعشرين سنة، حتى بزغ نجمه وعلا شأنه، وجلس للتدريس في مساجد تطوان ومدارسها، ولكن ذلك لم يمنعه من مواصلة العلم في مظانه، فالظمان إلى المعارف لا يرتوى مهما نهل، ولعله كلما نهل استطاب العلم فازداد إليه ظمأ، والعلم ليس له نهاية له وليس له حدود. يقول شيخنا بعد جلوسه للتدريس: فكنت في العلم الظاهر نتعلم ونعلم فما تركت العلم قط بعد التصدر للتعليم، نعلم من تحتنا ونأخذ عننا فوقنا. ولهذا شدّ الرحال إلى فاس، وهو في سن الأربعين، فسمع من علمائها، وأخذ عنهم، وقد توفر له فيها أساطين العلم في مختلف الفروع، فأخذ علم الحديث عن محدث عصره التاودي بن سودة، ودرس التفسير والفرائض واللغة، ومكث كذلك سنتين، عاد بعدهما إلى تطوان ليتابع تدريسه وتأليفه.^{١٢}

يتحدث رضى الله عنه عما حصّله من علوم، فيقول: والذي حصّلتناه من علوم الأذهان (العقلية) : علم المنطق، والكلام على مذهب أهل السنة، والمهم من علم الهيئة (الفلك) ، ومن علم الأديان: علوم القرآن، خصوصا التفسير. وحصّلتنا الفقه بأنواعه وأصول الفقه وأصول الدين، وحصّلت أيضا علم الحديث وعلم السير وعلم المغازي والتاريخ والشمائل، ومن علم اللسان: علم اللغة والتصريف والنحو والبيان بأنواعه، أما التصوف فهو علمى ومحط رحلى، فلى فيه القدم الفالنج، واليد الطولى وهكذا كان حظه من ثقافة عصره حظا وافرا، فقد أحاط بسائر علوم وقته، وانعكس ذلك على تفسيره فجاء بحره مرآة لثقافته الواسعة.^{١٣}

^{١٢} ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المجلد الأول، ٢٠.

^{١٣} ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المجلد الأول، ٢٠.

وبلغ رضي الله عنه وأرضاه مقامات العارفين بصدقه وحبه, فخلع ما كان عليه من الثياب, لما فتحت له الأبواب, وناداه منادي الأحباب: ما هذا الحال يا ابن عجيبة؟ فأفيضت عليه الأنوار, فارتدى مرقعة وإزارا, وعلق سبحته وقرابه في عنقه كما هو شأن الأخيار, وصار يمر في الأسواق معلقا قرابه في عنقه, لا بسا لمرقعته وسبحته, وهو يقول بأعلى صوته: الله الله, أش هادي الغريبة؟ لو كان العلم يغني عن الحال, ما يعلق القراب ابن عجيبة. واستمر على هذا الحال حتى نال ما نال, وتكلم على أسرار أهل الكمال, فأبدى علوما غريبة, وأسارا عجيبة, أجمعت على ولايته أهل المغرب بأسرها, وتبركوا بتقبيل يديه, وأقبلت الوفود عليه, وكان قدس الله سره نظره إكسيرا, إذا أتاه أو التقى معه من يعرفه يرقيه في ميدان "حسنات الأبرار سيئات المقربين" حتى كثرت على يديه الأتباع والمريدون.^{١٤}

٢. شيوخه:

(١) الشيخ الدرقاوى وهو أبو المعالي العرب بن أحمد الحسنى الشهير بالدرقاوى نسبة إلى جده محمد بن يوسف الملقب بأبى درقة "الدرقة كبيرة كانت له يتوقى بها فى الحروب". وصفه الكوهن بقودة أهل الكمال ومرشد السالكين إلى أعلى المقامات والأحوال، الإمام الهمام، وحلّاه العسكري بالعارف الأكبر والقطب الأشهر, وقال عنه صاحب السلوة: كان من العارفين بالله، الدالين بأقوالهم وأفعالهم وجميع أحوالهم على الله، جامعا لمحاسن الشيم والأخلاق.

^{١٤} ابن عجيبة, إيقاظ الهمم في شرح الحكم, ٧-٨.

(٢) الشيخ البوزيدى هو محمد بن الحبيب أحمد البوزيدي الحسنى من قبيلة غمارة، بشمال المغرب، والتي ينتسب إليها أيضا أبو الحسن الشاذلى، التقى بالدرقاوى، ولازمه مدة ست عشرة سنة، ويعد البوزيدى أقرب أتباع الدرقاوى إليه. كان رضى الله عنه أميًّا لا يكتب ولا يقرأ، ومع ذلك أعطاه الله ما لا يخطر بالبال من العلوم والأسرار، تخرج على يديه عدد كثير من فضلاء أهل الله، يقول الكوهن: "ولو لم يكن من تلاميذه إلا سيدى ابن عجيبة الحسن لكفى، مع أنه تخرج من تلاميذه جملة فضلاء من أهل الله، لا يحصرهم عدد، كلهم على قدم المعرفة وفى غاية التمكى"، توفى رحمه الله فى (١٢٢٩ هـ) ومقامه فى (مستغانم) من بلاد وهران بالجزائر.

(٣) الفقيه القاضي عبد الكريم بن قريش، أول من تتلمذ عليه ابن عجيبة بتطوان، وأنه كان الإمام العالم، الفقيه المدرس، الخطيب، كان رحمه الله مشاركا فى كثير من الفنون، وكان يستظهر مختصر خليل حفظا، ودارت عليه الفتوى فى زمانه بتطوان. تولى قضاء طنجة قهرا، فأظهر العدل وحمدة سيرته، وكان كما يقول تلميذه ابن عجيبة: ملجأ الناس فى الفتوى والشفاعة عند الولاية، مات فى الحجاز سنة ١١٩٧ هـ ويعتبر ابن قريش أحد الأساتذة الذين أكثر مفسرنا الأخذ عنهم.

(٤) الفقيه الشيخ أبو الحسن علي بن أحمد بن شطير الحسنى (توفى ١١٩١ هـ) وأنه كان الفقيه الإمام المحدث العالم النحرير، كان رحمه الله فقيها نحويا محدثا ذا ورع تام، درس البخاري والألفية ومختصر خليل وشمائل الترمذي بتطوان، وكان كما يقول ابن عجيبة: صابرا لإلقاء

الدرس، ذا عناية بالعلم، متواضعا متقشفا، يلبس الخشن من الثياب، على طريقة السلف الصالح. أخذ عنه ابن عجيبة بتطوان ألفية ابن مالك ومختصر خليل وغير ذلك.

(٥) الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد بن الحسن الجنوي الحسني (١١٣٥ - ١٢٠٠ هـ) أحد أعلام تطوان وزهادها، وأشهر أساتذة ابن عجيبة، الشيخ الإمام المحقق المتفنن الفهامة العارف بالله الأمين المعروف بالصلاح والدين المتين، ووصفه تلميذه ابن عجيبة: بالإمام الحبر الهمام مفتى الأنام، وأحد أئمة الإسلام، وخاتمة المحققين، وشمس المدققين. كان مشاركا فى الأصول والفروع يحزر المسائل ويدققها، ولا يرضى بالتقليد فى شىء من علومه، وكان ملجأ الناس فى حل المشكلات، تآتى الفتاوى إليه من أقطار المغرب، كما كان متبحرا فى علوم التصوف، مطلعاً على غالب فروع ومسائله، وكان يفر من الشهرة وملاقة السلطان، لازمه شيخنا ابن عجيبة ملازمة تامة، حتى توفى الجنوى سنة ١٢٠٠ هـ. بعد أن أخذ عنه تفسير القرآن، والبخاري مرتين، سماعاً، وبعضه شرحاً، وكذلك مسلم ومختصر خليل السبكي، وورقات الخطاب فى أصول الفقه للإمام الجويني، وفى علوم التصوف أخذ عنه الرسالة القشيرية، وحكم ابن عطاء، وأصول الطريقة، والنصيحة الكافية للشيخ زروق.^{١٥}

(٦) العلامة المحدث أبو عبد الله محمد التاود بن الطالب بن سودة المري (توفى ١٢٠٩ هـ) الإمام الهمام، شيخ الإسلام، وعمدة الأنام، وخاتمة المحققين الأعلام، وهلال المغرب وقودته وبركته. انفرد بالإمامة فى الحديث، كما كان مقدماً فى التفسير والفقه والتصوف والكلام والمنطق

^{١٥} ابن عجيبة، البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد، المجلد الأول، ٢١.

والأصول، قال عنه الكتاني في فهرسته: لا أعلم أحدا ممن ينتمى إلى العلم بالمغرب، إلا وله عليه منة التعليم، إما بواسطة أو بغير واسطة أو بهما معا، وحلّاه تلميذه ابن عجيبة في أزهاره: بشيخ الجماعة، وملحق الحفداء والأجداد، أخذ عن أحمد مبارك اللمطي، وابن عبد السلام بناني، ومحمد جسوس، وغيرهم، ومن شيوخه بمصر، الشيخ العيدروس، وحسن الجبرتي، وأبو الحسن العدوي. وكانت له رحلات لتدريس العلم بمصر والحجاز، فأقرا بالأزهر الموطأ، فتسارع، كما يقول كنون الناس للأخذ عنه لما رأوا من حفظه وإتقانه، وحضره أعيان المذاهب الأربعة، وكبار مصر وصلحائها، كالشيخ الدردير والحافظ الزبيدي. ومن تأليفه المفيدة: "زاد المجد الساري إلى قراءة صحيح البخاري" في نحو أربعة مجلدات، وحاشية على تفسير ابن جزى، وشرح الأربعين النووية والمنحة الثابتة في الصلاة الفاتنة وطالع الأمانى على مختصر الشيخ الزرقاني وغير ذلك كثير. أخذ عنه شيخنا ابن عجيبة صحيح البخاري وصحيح مسلم، وحصل منه على إجازة مطلقة عامة.^{١٦}

(٧) الحافظ أبو عبد الله الطيب بن عبد المجيد بن كيران (١١٧٢ - ١٢٢٧ هـ) أحد أساتذة ابن عجيبة بفأس، قال عنه مخلوف في شجرة النور: الإمام الحامل لواء المعارف والعرفان، العلامة المتفنن في العلوم، الحامل راية المنثور والمفهوم، وقال عنه صاحب إمداد ذوى الاستعداد: أعجوبة الزمان في الحفظ والتحصيل والإتقان، أخذ عن محدث عصره التاودي بن سودة، وبناني، وجسوس، وعنه أخذ عبد القادر الكوهن وغيره كثير، وكان يحضر مجلسه السلطان فمن

^{١٦} ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المجلد الأول، ٢٠.

دونه، درّس التفسير فى القرويين، فكان يستحضر أقوال المفسرين جميعا، ويقابل بينها ويناقشها، ويرد الزائف منها بالدلائل القوية والحجج البينة، كما كان له فى العربية باع طويل ونظم سديد، وله تأليف مختلفة منها: تفسير القرآن غير أنه لم يتمه، وحاشية على كل من صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن النسائي، وله شرح ألفية العراقي فى علم الحديث، وشرح حكم ابن عطاء الله، له كتب أخرى تنيف على العشرين.

٨) العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بنيس الفاسى دارا ومنشأ (١١٦٠ - ١٢١٣ هـ) وحلّاه صاحب شجرة النور الحافظ العمدة المحقق: الجامع لشتات العلوم والمعارف والمنطوق والمفهوم، وقال عنه تلميذه ابن عجيبة فى أزهاره: له مشاركة فى الفنون، واختص بعلم الفرائض، وكان الملجأ بفأس فى حل مشكلاته، أخذ عن الشيخ محمد جسوس، وعبد الرحمن المنجرة ومحمد عبد السلام الفاسى، وحج ولقى أعلاما واستفاد وأفاد، وأخذ عنه السلطان سليمان وحمدون بن الحاج وعبد القادر الكوهن وغيرهم كثير. له مؤلفات طيبة منها: بهجة البصير فى شرح فرائض مختصر خليل، ولوامع أنوار الكوكب الدرّي فى شرح همزية البوصيرى، وتحصيل ما للأئمة الأعلام فى مسائل الحيازة الدائرة بين الحكام. أخذ عنه شيخنا ابن عجيبة علم الفرائض وكتاب التسهيل لابن مالك، وحصل منه على إجازة عامة.^{١٧}

٣. تأليفه

وتأليف ابن عجيبة كثير منها:

^{١٧} ابن عجيبة، البحر المديد فى تفسير القرآن المعجيد، المجلد الأول، ٢١-٢٦.

- (١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد
- (٢) إيقاظ الهمم في شرح الحكم
- (٣) الدرر المتناثرة في توجيه القراءات المتواترة
- (٤) أربعون حديثاً في الأصول والفروع والرقائق
- (٥) الأنوار السننية في الأذكار النبوية
- (٦) رسالة في العقائد والصلاة
- (٧) سلك الدرر في ذكر القضاء والقدر
- (٨) الفتوحات القدوسية في شرح المقدمة الأجرومية
- (٩) الأنوار السننية في شرح القصيدة الهمزية
- (١٠) الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية
- (١١) اللوائح القدسية في شرح الوظيفة الزروقية
- (١٢) شرح أسماء الله الحسنی
- (١٣) شرح بردة الأبوصيري
- (١٤) شرح الحزب الكبير للشاذلي
- (١٥) شرح القصيدة الخمرية لابن الفارض
- (١٦) شرح تائية البوزيدي
- (١٧) شرح رائية البوزيدي في السلوك

(١٨) كشف النقاب عن سر لب الألباب

(١٩) معراج التشوف إلى حقائق التصوف^{١٨}

ج. مفهوم الذكر

١. تعريف الذكر ومعانيه

وقال محمد الواسطي الذكر هو الخروج من ميدان الغفلة إلى قضاء المشاهدة على غلبة الخوف

وشدة الحب.^{١٩} أطلقت الآيات القرآنية الكريمة كلمة الذكر على عدة معان كما يلي:

(١) فتارة قصد بالذكر القرآن الكريم, قال الله تعالى: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** (٩)

(الحجر: الآية ٩)

(٢) تارة قصد بالذكر العلم, قال الله تعالى: **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** (٤٣) (النحل:

الآية ٤٣)

(٣) فتارة قصد بالذكر الصلاة, قال الله تعالى: **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** (١٤) (طه: الآية ١٤)

(٤) وفي معظم النصوص أريد بكلمة الذكر التسبيح والتهليل والتكبير والصلاة على النبي صلى الله

عليه وسلم وما إلى هنالك من الصيغ كما في قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**

(٤١) **وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** (٤٢) (الأحزاب: الآية ٤١-٤٢), وقال أيضا: **وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي**

^{١٨} ابن عجيبة, البحر المديد في تفسير القرآن المجيد, المجلد الأول, ٢٩-٣٢.

^{١٩} عبد الكريم القشيري, الرسالة القشيرية في علم التصوف, (م.د: الحرمين, د.ت), ٢٢٢.

نَفْسِكَ تَضْرَعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)
(الأعراف: الآية ٢٠٥).

وبالجملة أن لفظ الذكر مشترك بين العلم والصلاة والقرآن والتسبيح والتهليل والتكبير والتحميد وغير ذلك، ولكن المعتبر في اللفظ المشترك ما غلب استعماله فيه عرفاً وغيره إنما يصرف إليه بقرينة حالية أو لفظية.^{٢٠}

٢. أنواع الذكر

والذكر على نوعين: ذكر اللسان وذكر القلب، فذكر اللسان يصل به العبد إلى إستدامة ذكر القلب والتأثير لذكر القلب، فإذا كان العبد ذاكراً بلسانه وقلبه فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه.^{٢١} وأفضل الذكر ما كان بالقلب واللسان جميعاً، وذكر القلب على انفراده أفضل من ذكر اللسان على

^{٢٠} عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، (د.م: دار العرفان، د.ت)، ١١٤.

^{٢١} عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، ٢٢١.

انفراده،^{٢٢} لأن القلب محل نظر الله الغفار وموضع الإيمان ومعدن الأسرار ومنبع الأنوار وبصلاحه يصلح الجسد كله وبفساده يفسد الجسد كله.^{٢٣}

فالذكر اللساني باللفظ المركب من الأصوات والحروف، والذكر القلبي ليس بالأصوت والحروف.^{٢٤} والمراد بذكر القلب أن تكون صورة الذكر الجاري على اللسان حاضرة فيه وجارية عليه، كما إذا قال بلسانه لا إله إلا الله يكون كذلك قائلاً لها بقلبه، وقال الآخر فالمراد بذكر القلب أن يكون معنى الذكر الجاري على اللسان حاضراً فيه، كما إذا قال بلسانه لا إله إلا الله يكون معنى هذه الكلمة الشريفة الذي هو انفراد الحق بالإلهية حاضراً في القلب.

وقال ابن عطاء الله رضي الله عنه: لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عن ما سوى المذكور.^{٢٥}

^{٢٢} عبد الله الحداد، النصائح الدينية والوصايا لإيمانية، (جاكرتا: دار الكتب الإسلامية، ٢٠١٣)، ١٩٧.

^{٢٣} محمد أمين الكردي، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، (دم.م.: الحرمين، ٢٠٠٦)، ٥٠٨.

^{٢٤} محمد أمين الكردي، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، ٥٠٨.

^{٢٥} ابن عجيبة الحسيني، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٦)، ١١٩.

وقال حجة الإسلام رحمه الله: الذكر على أربع مراتب: الأولى ذكر اللسان فقط, والثانية ذكر القلب مع اللسان تكلفا, والثالثة ذكر القلب طبعاً وحضوره مع اللسان من غير تكلف, والرابعة استيلاء المذكور على القلب واستغراقه به.

فينبغي لمن أخذ في الذكر بلسانه أن يتكلف إحضار قلبه مع اللسان حتى يصير ذاكراً بهما جميعاً تكلفاً في أول الأمر, ثم لا يزال يواظب على ذلك حتى يذوق القلب لذة الذكر وتشرق عليه أنواره, فعند ذلك يحضر بلا تكلف ولا مؤنة بل ربما صار إلى حالة لا يمكنه معها الصبر عن الذكر ولا الغفلة عنه.^{٢٦}

وينقسم ذكر اللسان إلى الجهر والسر, وإذا ذكرت الله تعالى في سرٍ وبحيث تسمع نفسك فقد أصبت وأحسن, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي, وإن جهرت بالذكر مع الإخلاص لله فيه ولم تشوش بسبب ذلك على مصل ولا قارئٍ بحيث تخلط عليه صلاته وقرائته فلا بأس بالجهر فلا منع منه بل هو مستحب ومحبوب.^{٢٧}

^{٢٦} عبد الله الحداد, النصائح الدينية والوصايا لإيمانية, ١٩٨.

^{٢٧} عبد الله الحداد, النصائح الدينية والوصايا لإيمانية, ٢٠٢.

وقال النووي رحمه الله تعالى: بأن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء أو تأذى به مصلون أو نيام أو غير ذلك, وإن لم يكن كذلك فالجهر أفضل, لأنه يوقظ القارئ ويجمع همه إلى الفكر ويصرف سمعه إليه ويطرد النوم ويزيد في النشاط وتتعدى فائدته إلى السامعين.^{٢٨}

وصيغة الذكر كثيرة كما ورد في الأحاديث النبوية, منها سبحان الله وبحمده وسبحان الله العظيم, قال النبي صلى الله عليه وسلم كَلِمَتَانِ حَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللّهِ العَظِيمِ،^{٢٩} وقال النبي صلى الله عليه وسلم مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللّهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ،^{٣٠} وقال النبي صلى الله عليه وسلم مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللّهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ.^{٣١}

ومنها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله, قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرَبُ أُمَّتِكَ مِنِّي السَّلَامَ وَأَحْبَرُهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةٌ التُّرْبَةُ عَذْبَةٌ المَاءُ، وَأَنْهَا قِيَعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللّهِ وَالحَمْدُ لِلّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ وَاللّهُ أَكْبَرُ،^{٣٢} وَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا عَلَى الأَرْضِ أَحَدٌ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ وَاللّهُ أَكْبَرُ وَلَا

^{٢٨} عبد القادر عيسى, حقائق عن التصوف, ١٢٧.

^{٢٩} البخاري, صحيح البخاري, المجلد الرابع, (بيروت, دار الكتب العلمية, ٢٠١٢), ٢٢٠, وانظر أيضا

مسلم, صحيح مسلم, المجلد الثاني, (بيروت: دار الكتب العلمية, ٢٠١٣), ٥٠٠.

^{٣٠} الترمذي, سنن الترمذي, المجلد الرابع, (بيروت, دار الكتب العلمية, ٢٠١١), ٣٥٠.

^{٣١} الترمذي, سنن الترمذي, المجلد الرابع, ٣٤٩.

^{٣٢} الترمذي, سنن الترمذي, المجلد الرابع, ٣٤٨.

حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، إِلَّا كُفِّرَتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ،^{٣٣} وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْثَرَ مِنْ قَوْلٍ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَإِنَّهَا مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ قَالَ مَكْحُولٌ، فَمَنْ قَالَ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا مَنْجَى مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ: كَشَفَ عَنْهُ سَبْعِينَ بَابًا مِنَ الصَّرِّ أَذْنَاهُنَّ الْفَقْرُ.^{٣٤} وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ.^{٣٥} أما كون لا إله إلا الله من أفضل الأذكار فلأن فيه معنى لا يوجد في ذكر غيره، وبمعرفة ذلك المعنى يحصل للمكلف جميع ما يجب عليه معرفته في حقه تعالى، وذلك معنى إثبات الألوهية له تعالى ونفيها عما عداه، ويندرج في معنى الألوهية جميع ما يجب على المكلف معرفته، مما يجب في حقه تعالى وما يستحيل عليه وما يجوز له، لأن الألوهية تشتمل على معنيين، أحدهما: استغناءه تعالى عن جميع ما سواه، والثاني افتقار جميع ما عداه إليه تعالى. وأما كون الحمد لله من أفضل الدعاء لأن الدعاء عبارة عن ذكر العبد ربه وسؤاله منه فضله، ففي الحمد لله هذا المعنى موجود، إذ فيه ذكر الرب وطلب المزيد لأنه رأس الشكر والعمدة فيه.^{٣٦}

٣. فضيلة الذكر

^{٣٣} الترمذي، سنن الترمذي، المجلد الرابع، ٣٤٧.
^{٣٤} الترمذي، سنن الترمذي، المجلد الرابع، ٤١٧.
^{٣٥} النووي، رياض الصالحين، (م.د)، (م.د)، (م.د)، وانظر أيضا الترمذي، سنن الترمذي، المجلد الرابع، ٣٠١.
^{٣٦} عثمان الخوبوي، درة الناصحين في الوعظ والإرشاد، (م.د: الحرميين، ٢٠٠٥)، ١٦٣.

قال الله تعالى: وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) (الأحزاب):

الآية ٣٥), وقال تعالى أيضا: الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)

(الرعد: الآية ٢٨)

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَالٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرُولَةً".^{٣٧} وقال صلى الله عليه وسلم أيضا: لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَعَشِيَّتُهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ.^{٣٨} وقال صلى الله عليه وسلم أيضا: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ اللَّهُ اللَّهُ.^{٣٩} وقال صلى الله عليه وسلم أيضا: إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: حَلَقُ الدُّرِّ.^{٤٠} وقال صلى الله عليه وسلم أيضا: لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَّا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ بِهَا.^{٤١}

وكان أبو مليح رحمه الله تعالى إذا ذكر الله تعالى يحصل له طرب ويقول إنما طربي بذكر الله تعالى، فإنه سبحانه وتعالى يقول: فَادُّكُرُونِي أَدُّكُرُكُمْ، وكان إذا مشى في طريق وهو غافل عن ذكر الله

^{٣٧}مسلم، صحيح مسلم، المجلد الثاني، ٤٩٤.

^{٣٨}مسلم، صحيح مسلم، المجلد الثاني، ٥٠١.

^{٣٩}الترمذي، سنن الترمذي، المجلد الثالث، ٢٣١.

^{٤٠}الترمذي، سنن الترمذي، المجلد الرابع، ٣٧١.

^{٤١}عبد الوهاب الشعراني، تنبيه المغترين، (جاكرتا: دار الكتب الإسلامية، ٢٠١٢)، ١٠٤.

تعالى رجع ثانيا وذكر الله تعالى فيها ولو مرحلة, ويقول إني أحب أن تشهد لي البقاع التي أمر فيها كلها يوم القيامة.^{٤٢} وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول إذا ذكرتم الخلق في مجالسكم فاذكروا الله تعالى, فإن ذكره دواء لداء ذكر الخلق.^{٤٣}

٤. خصائص الذكر

ومن خصائصه أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى يقول: أعطيت أمتك ما لم أعط أمة من الأمم, فقال: وما ذاك يا جبريل, فقال قوله تعالى: فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ, ولم يقل هذا لأحد غير هذه الأمة.^{٤٤} وهذا أكبر كرامة لأن الله جعلك مذكورا به حيث ذكرك بنفسه حين ذكرته, وإذا كنت مذكورا بسبب ذكره لك فقد ثبتت خصوصيتك عنده, فقد حقق نسبته لديك حيث أثبت لك الخصوصية, وقال لك: يا وليي يا صفيي, فمن أين أنت وهذه النسبة لولا أن الله تفضل عليك فأبي كرامة أعظم من هذه.^{٤٥}

وقد عد العلماء من خصائص الذكر وأرجحيته على غيره من الأعمال الصالحة أنه تمكن المداومة عليه في جميع الأوقات والأحوال, لأنه غير مؤقت بوقت بل هو مأمور به على الدوام, ويتعاطاه المحدث والجنب والمشغول والفارغ, سوى الصلاة وتلاوة القرآن, فإن لهما شرائط تتوقف عليه, أما

^{٤٢} عبد الوهاب الشعراني, تنبيه المغترين, ١٠٥.

^{٤٣} عبد الوهاب الشعراني, تنبيه المغترين, ١٠٤.

^{٤٤} عبد الكريم القشيري, الرسالة القشيرية في علم التصوف, ٢٢٤.

^{٤٥} ابن عجيبة, إيقاظ الهمم في شرح الحكم, ٤٤٩-٤٥٠.

الصلاة فإن لها شرائط مخصوصة وأوقات لا تصح إلا فيها, وأما تلاوة القرآن فإنها ممنوعة على صاحب الجنابة.^{٤٦}

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى: الذكر ركن قوي في طريق الله تعالى, بل هو العمدة في هذا الطريق, ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر.^{٤٧} وقال السري السقطي: أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: بي فافرحوا وبذكري تنعموا, وقال أيضا: جاء في بعض الكتب التي أنزلها الله تعالى: إذا كان الغالب على عبدي ذكري عشقني وعشقتة.^{٤٨}

وقال الشيخ أبو سعيد الخراز: إذا أراد الله أن يوالي عبدا من عباده فتح عليه باب ذكره فإذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب ثم رفعه إلى مجالس الأنس ثم جعله على كرسي التوحيد ثم رفع عنه الحجاب وأدخله دار الفردانية وكشف له حجاب الجلال والعظمة وإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هو فحينئذ يصير العبد زمنا فانيا فوق في حفظه وبرئ من دعاوى نفسه.^{٤٩}

وليحذر من الغفلة عن الذكر في وقت من الأوقات, فإن الغفلة عن ذكر الله كثيرة الضرر, قال النبي صلى الله عليه وسلم مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَبْرَةٌ، وَمَنْ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا

^{٤٦} عبد الله الحداد, النصائح الدينية والوصايا الإيمانية, ٢٠١.

^{٤٧} عبد الوهاب الشعراني, المنح السننية على الوصية المتبولية, (د.م: الحرمين, د.ت.), ١٧. وانظر أيضا عبد

الكريم القشيري, الرسالة القشيرية في علم التصوف, ٢٢١.

^{٤٨} عبد الكريم القشيري, الرسالة القشيرية في علم التصوف, ٢٢٥.

^{٤٩} محمد أمين الكردي, تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب, (د.م: الحرمين, ٢٠٠٦), ٥١٠.

لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تِزَّةٌ،^{٥٠} ومعنى الترة: الحسرة، وقيل التبعة. وربما تسلط الشيطان على الغافل واستولى عليه بسبب غفلته عن ذكر مولاه، كما قال الله تعالى: وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) (الزخرف: الآية ٣٦)، وقال تعالى أيضا: اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) (المجادلة: الآية ١٩)، ووصف بالمنافق من لا يذكر الله إلا قليلا، كما في قوله تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) (النساء: الآية ١٤٢)، ففي ملازمة الذكر والمداومة عليه طرد للشيطان وقطع لوسوسته، كما ورد أن الشيطان جاثم على قلب العبد، فإذا ذكر الله خنس وإذا غفل وسوس له.^{٥١} قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ.^{٥٢}

د. مفهوم التفكير

١. تعريف التفكير

التفكير سير القلب إلى حضرة الرب في ميادين الأغيار. والمقصود بالميادين جولان القلب في صنوف المخلوقات وأنواع المكونات لاستخراج ما فيها من العلوم وما انطوت عليه من العبر والآيات الموصلة إلى العلم بالله تعالى وما له من صفات الكمال ونعوت الجمال وغير ذلك. والمقصود بالأغيار

^{٥٠} أبو داود، سنن أبي داود، المجلد الثالث، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٣)، ٢٧٠.

^{٥١} عبد الله الحداد، النصائح الدينية والوصايا الإيمانية، ٢٠٠.

^{٥٢} البخاري، صحيح البخاري، المجلد الرابع، ٢٢٠.

وهي مخلوقات الله تعالى ومصنوعاته من السماء والأرض وغيرهما.^{٥٣} إنما عبر الأغيار بالمخلوقات لقوله صلى الله عليه وسلم عند رأى قوما يتفكرون فقال لهم: تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرُونَ الله حق قدره.

واعلم أنما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التفكير في كنه الذات وإدراك الحقيقة، ولكن إذا التفكر في عظمة الذات وقدمها وبقائها ووحدانيتها وتجلياتها في ظهورها وبطنها فهذا لا ينهى عنه لأنه سبب المعرفة مع العجز عن إدراك الكنه.^{٥٤} وإذا تفكر في وجود المخلوقات هداه ذلك التفكير إلى وجود موجدهم وهذا تفكر العامة، وإذا تفكر في الحسنات وما يترتب عليها من الثواب والقرب من المولى فعلها وازداد رغبة فيها، أو في السيئات وما يترتب عليها من أنواع العذاب تركها ولم يقربها وهذا تفكر العابدين، وإذا تفكر في فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها ازداد زهدا فيها وهذا تفكر الزاهدين، وإذا تفكر في الآلاء والنعماء ازداد محبة في المنعم بها جل جلاله وهذا تفكر العارفين.^{٥٥}

وأما بداية التفكير وهو المراد بتفكر تصديق وإيمان، وهو الذي يتفكر في المصنوعات ليتوصل إلى معرفة الصانع وقدرته وعلمه وحياته وغير ذلك، وهو يستدل بالخلق على الخالق، وهو السائر إلى الله بأنوار التوجه بسير القلب في ميادين الأغيار.

^{٥٣} ابن عباد النفري، شرح الحكم، (د.م: الحرمين، ٢٠١٢)، ٧٨.

^{٥٤} ابن عجيبة الحسيني، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ٤٥٤.

^{٥٥} ابن عباد النفري، شرح الحكم، ٧٨.

وأما نهاية التفكير وهو المراد بتفكير شهود وعيان وهو الذي ترقى من شهود الدليل إلى المدلول ومن الأثر إلى المؤثر ومن الأعيان إلى شهود الأنوار ومن الملك إلى الملكوت, فما يشهد إلا أنوار الملكوت تدفقت وانصبت من بحار الجبروت فهو غرقى في بحار الأنوار مطموس عنه وجود الآثار, فإن رد إليه رأوه قائما بالله ومن الله وإلى الله, وهو السائر إلى الله بسير الروح في ميادين الأنوار قد انقلبت الأعيان في حقهم أنوارا والدلائل مدلولات والغيب شهادة.^{٥٦}

٢. مجاري التفكير وثمرته

عن جمهور العلماء أن التفكير على خمسة أوجه, أحدها تفكر في آيات الله أي التكوينية أي في عجائب مصنوعات الله الباهرة وآثار قدرته الباطنة والظاهرة مما انتشر في ملكوت السموات والأرض وطلوع الشمس من مشرقها وغروبها في مغربها واختلاف الليل والنهار وعجائب المصنوعات نفسك وغير ذلك, كما قال الله تعالى قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ عَنِ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) (يونس: الآية: ١٠١), وقال أيضا: وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) (الذاريات: الآية: ٢٠-٢١), فإذا تفكر العبد في آيات الله يثمر من هذا التفكير التوحيد واليقين الذي يزيد بذلك معرفة بذات الله وصفاته وأسمائه, ومن ثمرات اليقين: السكون إلى وعد الله والثقة بضمأن الله والإقبال في كنه الهممة على الله وترك ما يشغل عن الله والرجوع في كل حال إلى الله

^{٥٦} ابن عجيبة الحسيني, إيقاظ الهمم في شرح الحكم, ٤٥٥-٤٥٦.

واستفراغ الطاقة في ابتغاء مرضات الله, قال الله تعالى: سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

لَهُمْ أَنَّهُ حَقُّ الْقَوَالِ أَوْ أُلْحِقَ اللَّهُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) (الفصلت: الآية ٥٣).^{٥٧}

وثانيها تفكر في آلاء الله ونعمائه التي أسبغها علينا وعطاياه التي أوصلها إلينا, قال الله تعالى:
فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) (الأعراف: الآية ٦٩), وقال أيضا: وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَذَلُولٌ كَفَّارٌ (٣٤) (إبراهيم: الآية ٣٤), وقال أيضا: فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) (الرحمن: الآية ١٣), وقال أيضا: وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ (٥٣) (النحل: الآية ٥٣). وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين الآلاء والنعماء, فقال كل ما ظهر من النعم فهو الآلاء وما بطن فهو النعماء, ومثل ذلك اليدان والآؤه وقوة اليدين نعماءه, وكالوجه الآؤه وحسن الوجه وجماله نعماءه, وكالفم الآؤه وطعم الطعام نعماءه, وكالرجلين الآؤه والمشية نعماءه. فإذا تفكر العبد في آلاء الله ونعمائه يثمر من هذا التفكير امتلاء القلب بمحبة الله والإشغال بشكره باطنا وظاهرا.^{٥٨}

وثالثها تفكر في وعد الله تعالى فيما أعد لأنبيائه وأوليائه من الخير العاجل والآجل, قال الله تعالى: أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ, وقال أيضا: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) (الفتح: الآية ٢٩), وقال أيضا: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا

^{٥٧} محمد نوي الجاوي, نصائح العباد, (جاكرتا: دار الكتب الإسلامية, ٢٠١٠), ٥٥, وانظر أيضا نصر السمرقندي, تنبيه الغافلين, (د.م: الحرمين, د.ت), ٢٠٦.

^{٥٨} محمد نوي الجاوي, نصائح العباد, ٥٥, وانظر أيضا نصر السمرقندي, تنبيه الغافلين, ٢٠٦.

الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا (النور: الآية ٥٥), وقال أيضا: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتًا طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) (النحل: الآية ٩٧), وقال أيضا: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَرَزَوْنَاهُمْ بِخُورٍ عَيْنٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتِ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضَلَّأَ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) (الدخان: الآية ٥١-٥٧), فإذا تفكر العبد في وعد الله تعالى يثمر من هذا التفكير محبة السعداء وحمل النفس على العمل الصالح والأخلاق الكريمة والرجاء والإجمال لله تعالى.

ورابعها تفكر في وعيد الله تعالى فيما أعد لأعدائه في الدنيا والآخرة من الهوان والعقوبة والنكال, قال الله تعالى: فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) (العنكبوت: الآية ٤٠), وقال أيضا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) (النساء: الآية ٥٦), وقال أيضا: إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقُومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَنْثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَعَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ

(٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) (الدخان: الآية ٤٣-٥٠), فإذا تفكر العبد في وعيد الله تعالى

يثمر من هذا التفكير الهيبة والرهبة ويكون له الإجلال لله تعالى وحذر من فعل المعاصي.^{٥٩}

وخامسها تفكر في إحسان الله تعالى مع تقصيرك عن طاعته وتقويه, مثال آية تأمر الناس لطاعة

الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) (آل عمران: الآية

١٠٢), وقال أيضا: وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ

دِينُ الْقِيَمَةِ (٥) (البينة: الآية ٥), وقال أيضا: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) (الذاريات:

الآية ٥٦), ومثال آية تبين إحسان الله تعالى: وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ

فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ

لَبْنَا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا

يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ

فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) (النحل: الآية ٦٥-٦٩), وقال أيضا: وَالْأَنْعَامَ

خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْحَيْلِ وَالْبِغَالِ

وَالْحَمِيرِ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ

أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ

^{٥٩} محمد نوي الجاوي, نصائح العباد, ٥٦, وانظر أيضا نصر السمرقندي, تنبيه الغافلين, ٢٠٦.

الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَلْطًا تُبْسِطُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)

(النحل: الآية ٥-١٤), فإذا تفكر العبد في ذلك ينمر من هذا التفكير الحياء ويحمله على لوم نفسه وتوبيخها ومجانبة التقصير.^{٦٠}

فإذا تفكر العبد في هذه الخمسة أشياء فهو من الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم تفكر ساعة خير من عبادة سنة. ولا يتفكر فيما سوى ذلك, فإن التفكير فيما سوى ذلك وسوسة, قال بعض الحكماء لا تتفكر في ثلاثة أشياء, لا تتفكر في الفقر فيكثر همك وغمك ويزيد في حرصك, ولا تتفكر في ظلم من ظلمك فيغلظ قلبك ويكثر حقدك ويدوم غيظك, ولا تتفكر في طول البقاء في الدنيا فتحب الجمع وتضيع العمر وتسوف في العمل.^{٦١}

٣. كيفية التفكير

وقد ورد القرآن على كيفية التفكير في بعض الآيات كما قال الله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

^{٦٠} محمد نوي الجاوي, نصائح العباد, ٥٦, وانظر أيضا نصر السمرقندي, تنبيه الغافلين, ٢٠٦.

^{٦١} نصر السمرقندي, تنبيه الغافلين, ٢٠٧.

(١٩١) (آل عمران: الآية ١٩٠-١٩١), وقال تعالى أيضا: أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَدْكُرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلٌ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) (النمل: الآية ٦٠-٦٤), وقال تعالى أيضا: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِعَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) (الروم: الآية ٢٠-٢٥)

اعلم أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقته, وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته, وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مدادا لذالك لنفد البحر قبل أن ينفذ عشر عشيره, ولكنني

أشير إلى جمل منه من الموجودات ما يدرك بحس البصر وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما. وأما السموات فمشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها، وأما الأرض فمشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهاؤها وبحارها وحيوانها ونباتها، وأما بين السموات والأرض وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعداها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها. فلا تتحرك ذرة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه وهي الآيات الدالة عليه.^{٦٢}

وكيفية التفكير مثاله أن نتفكر أن الله خلق الأرض فراشا مهادا وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكبها، وجعلها قارة لا تتحرك، وأرسى فيها الجبال أوتادا لها تمنعها أن تميد، ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم. وانظر إلى الأرض وهي مينة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبئت عجائب النبات، وخرجت منها أصناف الحيوانات. ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب، وكيف أودع المياه تحتها ففججر العيون وأسأل الأنهار تجري على وجهها، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا، وجعل به كل شيء حي، فأخرج به فنون الأشجار والنبات

^{٦٢} الغزالي، إحياء علوم الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٠)، ٥٧٧-٥٧٨.

من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان, وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرايح, يفضل بعضها على بعض في الأكل, تسقى بماء واحد, وتخرج من أرض واحدة.^{٦٣}

ومن كيفية التفكير أيضا مثاله أن نتفكر أن الله خلق الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الأرض. ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة, فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد والفيروزج واللعل وغيرها, بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد, وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللعل, وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلي منها. ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها, وأقلها الملح لتطيب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها, فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر, فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه, ليكون ذلك تطيبا لطعامك إذا أكلته فيتهدأ عيشك. وانظر إلى أصناف الحيوانات وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشي, وانقسام ما يمشي إلى ما يمشي على بطنه وإلى ما يمشي على رجلين وإلى ما يمشي على أربع أو أكثر, ثم انقسمها في المافع والصور والأشكال والطباع, وانظر إلى طيور الجو وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية وإلى الحيوانات في البحر ترى فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصورها.^{٦٤}

^{٦٣} الغزالي, إحياء علوم الدين, ٥٨٤.

^{٦٤} الغزالي, إحياء علوم الدين, ٥٨٥.

ومن كيفية التفكير أيضا مثاله أن نتفكر أن الله خلق البحر وأن ما فيه من الحيوان والجواهر, وأن الله خلق فيه اللؤلؤ ودوره في صدفة تحت الماء, وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء, وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر, ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه, ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم, وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم, ثم أرسل الرياح لتسوق السفن, ثم عرف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقتها. ثم انظر إلى الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى بالعين شخصه, فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحا هابة فإن شاء جعله نشرا بين يدي رحمته فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء, ولا من جماد ولا حيوان ولا نبات ولا بحر ولا هواء إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس, ما خلق شيء منها عبثا ولا لعبا ولا هزلا بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله ولطفه.^{٦٥}

٤. فضيلة التفكير وفائدته

اعلم أنه قد أمرنا الله تعالى بالتفكير في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى, وأثنى على المتفكرين, فقال تعالى: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

^{٦٥} الغزلي, إحياء علوم الدين, ٥٨٧-٥٨٨.

وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) (آل عمران: الآية ١٩١), وقال ابن عباس رضي الله عنه إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله, وروي أيضا: تفكر ساعة خير من عبادة سنة, وقال الشافعي رحمه الله تعالى: استعينوا على الكلام بالصمت, وعلى الإستنباط بالفكر.^{٦٦}

وفائدة التفكير لسراج القلب يعنى كالسراج الحسي أي المصباح الذي يضيئ فيه فيستتير به وبالنور تنجلي حقائق الأمور فيظهر به الحق حقا والباطل باطلا فيعرف به عظمته تعالى وجلاله ويطلع على خفايا آفات النفس ومكايد العدو وغرور الدنيا ويعرف وجوه الحيل في التحرز عنها إلى غير ذلك, فإذا ذهب التفكير فلا إضاءة له لأن القلب الخالي عن التفكير خال من النور كالبيت المظلم ولا يكون في القلب المظلم إلا الجهل والغرور.^{٦٧}

ومهما تيسر الفكر فهو أشرف العبادات, إذ فيه معنى الذكر لله تعالى وزيادة أمرين: أحدهما زيادة المعرفة إذ الفكر مفتاح المعرفة والكشف. والثاني زيادة المحبة إذ لا يحب القلب إلا من اعتقد

^{٦٦} جمال الدين القاسمي, موعظة المؤمنين, (د.م: دار العلوم الإسلامية, د.ت), ٣٥٥.

^{٦٧} ابن عباد النفزي, شرح الحكم, ٧٨.

تعظيمه, ولا تنكشف عظمة الله سبحانه وجلاله إلا بمعرفة صفاته ومعرفة قدرته وعجائب أفعاله. فيحصل

من الفكر معرفة, ومن المعرفة التعظيم, ومن التعظيم المحبة.^{٦٨}

^{٦٨} بكري المكي, كفاية الأتقياء ومنهاج الأصفياء, (جاكرتا: دار الكتب الإسلامية, ٢٠١٣), ١١٥.